خبرات ذاتية

الذاكرة ومفهوم النشاط

عند التفكير والتأمل في الحياة المدرسية، ومحاولة استرجاع صور وحالات تلك المرحلة التي استمرت لإثنتي عشر عاما، سيكون من الصعب رصد الكيفية التي تشكلت فيها خبراتنا ومعرفتنا، لكن تظل هناك مواقف راسخة في الذهن حصلت معنا حين كنا طلابا، مواقف أكسبتنا خبرات ما نزال نتصرف بناء عليها، سواء أكانت تلك المواقف تذكرنا بخطأ ارتكبناه، ام بشيء ايجابي حصلنا من خلاله على اعجاب المعلم او تصفيق الطلبة.

أتذكر الآن حياتي المدرسية كأنها مجموعة متفرقة من المواقف والأحداث والمعلومات، التي ما زال بعضها عالق في الذاكرة، وبما أنه من الصعب احصاء هذه المواقف والحالات بتفاصيلها، إلا إنني ألاحظ أن اكثر ما أتذكره يأتي في نوعية هذه المواقف :

- مواقف تتعلق بالفكاهات والطرائف، التي كنا نحيكها ونضحك عليها كأطفال في الصف.
- مواقف عصيبة، كالتأخر عن امتحان او عدم التحضير لدرس أو الخوف من امتحان.
- أحداث صادمة (نادرة الحدوث لحسن الحظ) كحالات ضرب قاسية لطلبة في الصف.
- النشاطات العملية في المختبرات وحديقة المدرسة والصف.
- حالات الاثارة في أجواء النقاش وإبداء الرأي، فأتذكر في بعض الحالات، عندما سألني الأستاذ عن رأيي في قضية معينة، ماذا كان جوابي وكيف كانت ردة فعله.

إذا اعتبرنا ان ما جاء في(1،2،3) يعبر عن ذكريات شخصية ساكنة، أي ليس فيها معرفة حيوية تضاف إلى خبرة الشخص. فإنني أتذكر بوضوح (4،5) الأنشطة العملية والتجارب التي قمنا بها داخل المختبرات وحديقة المدرسة، وأتذكر المعرفة الناتجة عن هذه الخبرة، أي أتذكر الى الآن كيفية اضافة محلول لآخر أو زرع نبتة، وأتذكر «حصة النشاط» على وجه الخصوص، التي كنا نأخذها مرة في الأسبوع، حيث كنا نخرج فيها لحديقة المدرسة، لكي نزرع او نقطع العشب أو نخرج لتنظيف باحة المدرسة، أو ترتيب كتب المكتبة...الخ. وأتذكر اجواء النقاش والحماسة في ابداء آراء ذاتية حول مادة مقررة، أو حول قضية اجتماعية أو سياسية خارج المدرسة.

بالمقابل فإنني لا أتذكر الآن صفحة واحدة في كتاب، أو إجابة واحدة لمئات وآلاف الأسئلة في الامتحانات، التي كتبتها في حياتي المدرسية، بل لا أتذكر سؤالا واحدا كاملا، ولا جوابا واحدا شافيا.

ويتفاوت الآن انطباعي عما أتذكره من حياتي المدرسية، فمثلا أشمئز حين أتذكر الطريقة التي ضرب فيها المعلم أحد الطلاب، واتذكر خوفي وتوتري في تلك اللحظة، بينما أضحك حين أتذكر موقف فكاهة مع زميل لي في المدرسة، وأشعر بالزهو والرضى حين أتذكر جوابا صفق له الطلاب، أو أن سؤالا لي أعجب الأستاذ وأثار جدلا، وبنوع من الوفاء والتقدير لهذا الموقف، أحرص على الاحتفاظ بالمعلومة التي اكتسبتها في هذا الموقف والحرص على عدم نسيانها.

المنهاج برؤية طالب

لم أكن أدري حين كنت طالبا، بأن هذا المنهاج الذي أدرسه لا يلبي رغباتي، ولا يفي بحاجاتي، وأنه غير كافي لاكسابي المهارات اللازمة لإعدادي للحياة، بل كان هذا المتطلب الدراسي بالنسبة لي هو السقف الذي دائما أنا تحته، ودائما علي الصعود إليه، دائما أنا مقصر في حقه، وكنت أعرف ما هي أهمية المدرسة، ولكن لم أكن أعرف أهمية الحياة الخارجية بالمقابل، بل إن الحياة خارج المدرسة هي شيء ضد مفهوم الدراسة والتعليم، فأنت تدرس حتى لا تكون «ابن شارع»! ، أي كانت الثقافة المحيطة تعزز عالم المدرسة الذي تحده الجدران والكتب.

القائمون على اعداد المنهاج ونظرياته وأساليبه، يحاولون وضع منهاج يلبي حاجات الطلبة، ولكنه دائما سيظل يحقق اهدافهم بشكل نسبي، لذلك سيبذلون دائما أقصى الجهود لتحقيق ما امكن من هذه الاهداف. بالنسبة لي، ما كان ينقصني في المنهاج؛ عوضتني عنه في مرحلة من المراحل «حصة النشاط» التي كانت تربطني كطالب مدرسة مع الحياة، دون ان أعرف مدى اهميتها في تلك الفترة، كانت تعويضا

متواضعا عما ينقصني في المنهاج دون أن أعرف ذلك، وهذا ما سيقودني الآن لعرض نظرية منهج النشاط، الذي وضعه بعض علماء تربويين في محاولة منهم، لتعويض اي نقص محتمل في المنهاج، لتلبية حاجات ورغبات وأسئلة الطلاب.

منهج النشاط*:

تنظيم منهجي يقوم على الميول الايجابية والمشتركة للتلاميذ، وحاجاتهم داخل المجتمع الذي يعيشون فيه، وهو بهذا الاعتبار منهج حديث، يعتبر المتعلم محورا للعملية التعليمية، أي نقطة البداية والنهاية في العملية التعليمية، فيصبح المتعلم انسان نشط وايجابي وفعال في الموقف التعليمي، يمارس نشاطا ذا معنى، يرتبط بميوله وحاجاته الحقيقية في مجتمعه، وتتحقق ايجابية المتعلم التي ربما يفقد الاحساس بها في ظل المقرر المدرسي، الذي لا خيار فيه، الا في التفاعل معه حسب المنهاج وحسب اسئلة الامتحان.

بهذا المعنى فإن منهج النشاط محاولة للتغلب على عيوب منهج المواد الدراسية، حيث يتم في منهج النشاط التخلص من سلبية المتعلم والاهتمام بميوله وحاجاته الحقيقية، ويتيح للمتعلمين تعلما ديناميا في مواقف طبيعية، يفيد في مجال التطبيق والعمل.

كما يعني ان مركز الاهتمام في المنهج، يتم نقله من المادة الدراسية الى التلميذ نفسه، فالتلاميذ يشتركون في اختيار الأنشطة التي تشبع ميولهم ورغباتهم وتحقق اغراضهم، وفي اثناء ممارستهم للأنشطة تتاح لهم فرص عديدية للملاحظة والقراءة، والبحث والتفكير، وكتابة التقارير، واجراء التجارب، واستخلاص النتائج. ويتم كل ذلك تحت اشراف المدرس وتوجيهه.

بذلك تنبع ميول جديدة تؤدي الى أنشطة جديدة، أي أن هذا المنهج يتميز بالنشاط المؤدي الى مزيد من النشاط.

وقد قام جون ديوي الذي استخدم تعبير (برنامج النشاط) في عام 1896، قام باستمثار الدوافع التي يستند اليها منهج النشاط وهي أربعة دوافع انسانية:

- الدافع الاجتماعي، ويظهر في رغبة الطفل مشاركة خبراته مع من حوله من الناس.
- الدافع الانشائي، ويظهر في لعب الطفل وحركاته الايقاعية، وتشكيل المواد الخام في صورة أشياء نافعة.
- دافع الطفل للبحث والتجريب، ويظهر في عمل الطفل بعض الأشياء ومعرفة نتيجة عمله.
- الدافع المعبر، ويظهر في تعبير الطفل عن ميوله واتصاله بغيره من الأطفال.

وقد قام باستثمار هذه الدوافع لتحقيق النمو الشامل لدى الأطفال، واستخدامها في تربيته، ولم يستخدم ديوي المواد الدراسية المنفصلة، بل استخدم مجموعة من الحرف البسيطة كمحور للنشاط المدرسي، مثل: الطهي والنجارة، والحياكة، وهي ترتبط بحصول الإنسان على الطعام والمسكن والملبس، ومن خلالها تنمو وتتطور القيم العليا للحياة، وهي تتطلب ممارسة يدوية، ونشاطا عقليا، وكذلك التخطيط والتدبير والتجريب.

منهج النشاط عند مريام، انقسم لأربعة اقسام: الملاحظة، اللعب، القصص، العمل اليدوي.

اما في مدرسة كولنز التجريبية، فكانت الأقسام الرئيسية هي: اللعب، الجولات القصيرة، القصص، الأشغال اليدوية.

حيث ينتج عن هذه الحرف خبرات نافعة في الحياة اليومية للأطفال، كما انها تربط بين خبرات المنزل والعملية التربوية داخل المدرسة.كما ان الطفل لا يجبر على تعلم مهارة الا اذا أحس بحاجة الى تعلمها. فالأطفال بهذه الطريقة يسألون ويفكرون ويقارنون ويصلون الى حلول بأنفسهم، ويعبرون عن افكارهم ومشاعرهم، ويستخدمون الحساب والقراءة والكتابة كوسائل لا كغايات، فتصبح المدرسة جزءا من حياة المجتمع المحلي وليست منعزلة عنه.

هذا يعني أن ميول التلاميذ وحاجاتهم هي الأساس، الذي يتم في ضوئه اختيار محتوى منهج النشاط، علاوة على رغبة التلاميذ في البحث والاستقصاء والتجريب، كما ان الخبرة المباشرة، والميول التلقائية الحقيقية والانشطة الفعلية تنظم وحدات التعلم، وهذا كله يعني ان التعلم ينبغي ان يكون خبرة.

فالميول هنا هي ما يحسه الأطفال فعلا، لا ما يحدده الكبار للصغار، وهي ميول موجودة بصفة دائمة، اي ليست نزوات وقتية، بل ميول تصبح اغراضا، ميول ايجابية ومشتركة تظهر في اثناء اشتغال الأطفال بعمل ما، وهنا تتولد ميول جديدة، بحيث تعني ان منهج النشاط عبارة عن نشاط يتولد عنه نشاط.

هذا عرض موجز عن منهج النشاط، الذي تمثل بشكل متواضع في «حصة النشاط»، التي كانت ضمن برنامج مدرستي الإعدادية، والتي استطيع بعد مرور هذه السنوات على تخرجي من المدرسة، ان اعرف مدى قيمة هذه الحصة وأهميتها، رغم انها كانت حصة واحدة فقط كل أسبوع، إلا اني ما زلت أتذكرها وأحملها كخبرة تربوية حية.

أنس العيلة

* شحادة حسن، المناهج الدراسية بين النظرية والتطبيق، ط1، 1998، مكتبة الدار العربية للكتاب.القاهرة.